عقاب النفس

(تابع ما قبله)

يبكي والقاضي مغشياً عليه فوقفت هي الاخرى ساهية تنظر الى القس والقس ينظر اليها وكان الجميع سكوتاً كأنما هم بكم لا ينطقون و بعد برهة قالت اسما موجهة كلامها الى القس . هل مات ؟ وكأنما القس فقد حاسة النطق وقتذاك فنظر اليها ولم يجب . فاجابها جورج الذي كان يبكي لبته . كان كذلك

و بعد ذلك تعاون الثلاثة على حمله ووضعوه عل سريره ورشوه بالماء البارد فلم يفق فارسلوا في طلب الطبيب

و بعد هنيهة جاء الطبيب وجس نبض العليل وانشقه بعض الادوية المنبهة فتململ وفتح عينيه فوقع نظره عليهم فنظر اليهم نظراً شارداً وهب صارخاً ابنتي زوجتي وسقط مغشياً عليه مرة ثانية

فسألهم الطبيب عن اسباب مرضه فكتموها عنه فقرر جنونه وانذرهم بخوفه من انقطاع شريان في قلبه فيقتل للحال . فاكمل جورج الحديث قائلاً . ويستريح من هذا العذاب . فنظر اليه الطبيب ببرود وسكت وكتب تذكرة الدواء وسلمها اليهم وأخذ اجرته وكر راجعاً

ولبث الثلاثة جالسون ساكتون بجانب سرير العليل ينتظرون افاقته حتى غلب عليهم النعاس فناموا

و بعد قليل افاق المجنون من موته فلم يجد احداً بجانبه فأخذ يصرخ صراخاً متوالياً حتى ايقظهم من النوم

ولما رآهم أخذ يصرخ .. ابنتي زوجتي .. ويكررها مراراً كأنما قد نسي كل الكلام سوى هاتين الكلمتين

و بعد ذلك أخذ يضرب رأسه بالحائط وكانوا يمسكونه فلا يقدرون عليه حتى اذا تعب استلقى على سريره بعنف وأخذ يئن انيناً مزعجاً

. . . . تعذّب ايها القاضي تعذّب فقد كنت لا تشفق على انسان وتذكّر ان كنت تعقل ـ ان استر المسكينة بكت كثيراً وتعذّبت اكثر . فاحصد اليوم ما زرعته بالامس (فان الذي يزرعه الانسان اياه يحصد)

وظلوا جالسين بجانب سريره الى ان لاح الفجر فخمدت انفاسه وأسلم الروح وهكذا على الدوام (كما ان البر يؤول الى الحياة كذلك من يتبع الشر فالى موته) فأخذ جورج واسما يذرفان الدمع . . وركع القس بجانب سريره وابتدأ يصلي

وانتشر خبر موت القاضي سريعـاً فوفد الناس جماعات جماعات وهم الذين كانوا يهنئونه بالامس جاءوا اليوم ليشيعوا نعشه الى مرقده الاخير وهكذا الدهر يوم لك ويوم عليك

﴿ الفصل الثامن ﴾

« نعود الى ايوب صديقنا القديم »

وقف ايوب في موقفـه المعتاد ضاحكاً وبيده فأسه وأخذ ينظر ذات اليمين وذات اليسار لعله يجد احداً يمزح معه فلم يجد

فجلس الى الارض وقال لنفسه كنت اقول ان القاضي ظالم والحقيقة اني اظلم منه وأخذ يكرر هذه الجملة ويفتكر فيها ضاحكاً حتى رزقه الله بصديق له كان ذاهباً الى حقله فناداه ايوب فجاء اليه ووجده يكرر هذه الجملة فسأله لمـاذا انت اظلم منه يا ايوب ؟ قال لاني في العام الماضي دفنت ميتاً بلا رخصة فأمر هذا القاضي بحبسي اسبوعاً فقضيته بالسجن وخرجت . والآن فاني سأنتقم منه انتقاماً هائلاً . قال بماذا ؟ قال بأني سأسجنه سجناً مؤبداً الى ما شاء الله فضحك الرجل وسأله كيف مات القاضي اليوم وقد تزوج بالامس . اجاب ايوب وقال انه كان رجلاً ظالماً فلم يمهله الموت الا ريثما لمست شفتاه كأس الحناء واختطفه بغتة لكي لا يتمتع به وهكذا دائماً (رجل الظلم يصيده الشر الى هلاكه) وظهرت الجنازة فترك ايوب صديقه ووقف لاستقبالها

حتى اذا بلغت المدفن أخذ النعش بثمانة من بين ايديهم وادخله القبر واغلقه عليه بتأن واحتراس قائلاً في نفسه لئلا يخرج ثانياً . . .

وعاد المشيعون يعزون القس صهر الفقيد وجلس القس في سرايه يستقبل المعزين حتى تمت ايام الجنازة

وقد علم القس حقيقة المسأله فحمد الله على تسرعه وعلم (ان كلما يفعله الله يفعله للخير)

و بعد ذلك بأيام جاء القس باثاث منزله وسكن مع ربيبته اسما الغنية بسراي وليم بك التي ورثتها عنه مع كل ممتلكاته لعدم وجود وارث له سواها وهكذا شاءت العناية الالهية بان ترث الابنة أباها

اما جورج فاظهر نفسه لابنة اخته وعاد البلدة جذلاً مسروراً

﴿ الفصل التاسع ﴾

« ختام مفرح »

وقف القطار بالمحطة اذ كانت الساعة السادسة صباحاً وكان الشيالون يدخلون ويخرجون في العربات يحملون عفش المسافرين

وخرج بعدهم شاب في الرابعة والعشرين من عمره طويل القامة اسمر الوجه لطيف الهيئة جداً وكان يحمل تحت ابطه محفظة من الجلد يعلم من ينظر اليها انها تحتوي كتباً وكان بيده مظلة عتيقة ليستظل بها من حرارة الشمس — ففرد مظلته وأخذ يسير في طريق البلد حتى اذا وصلها أخذ يخترق شوارعها مما يدل على انه يعرفها قبل وكان يخرج من شارع ويدخل في عطفة حتى وقف امام بيت صغير وتنفس مستريحاً و بعد هنيهة طرق البيت ففتحه له غلام صغير فاستغرب الشاب هذا الغلام وأخذ ينظر الى البيت من جهاته الاربع حتى وثق انه نفس المنزل الذي يقصده . واخيراً سأل الغلام عن القس فأجابه انه ترك هذا البيت من ثلاث سنوات

فدهدم الشاب قائلاً ـ انه لم يكتب لي ـ وترك هذا البيت وسار في طريق اخرى بلا روية حتى اذا صادفه انساناً تلطف معه وسأله عن منزل القس فسار الرجل معه ليدله عليه ـ و بعد سير قليل وقف امام سراي انيقة فأشار له اليها وتركه وكرّ راجعاً فابتسم الشاب وظن انه معتوهاً ووقف في موضعه حتى اذا مرّ عليه آخر سأله فأجابه نفس الجواب فتضايق الشاب وتقدم بخطوات مضطربة الى تلك السراي فرأى عن بعد القس الشيخ جالساً فاسرع اليه ففتح هذا ذراعيه وتلقى ابن اخته بينهما

هذا هو متري ابن اخت القس الشيخ . . وهذا هو متري حبيب اسما التي كانت تذكره في أحرج اوقاتها . ذلك الشاب المجتهد النشيط الذي عاد يحمل تلك الورقة الجميلة التي تدل على فوزه الاكيد

و بعد برهة سأل متري خاله لمن هذه السراي يا خالي ؟ قال انها لنا جميعنا يا ولدي قال ومن اين اصبحت غنياً فتستأجر مثلها ؟ قال انها ملكنا فاغتاظ الشاب وظن ان خاله ايضاً مجنوناً وسكت . وقال القس انا لا يمكني ان اشرح لك الحقيقة فاصعد الى الأعلى وهناك اسماء المشتاقة للقائك فهي أقدر مني على تفهيمك ما جرى قال هذا واشار له على السلم فصعد الشاب بخطوات ثقيلة الى الدرج وهناك وقف محتاراً اذ وجد ابواب كثيرة لا يدري ايهـا يدخل . و بعد لحظة خرجت احدى الخادمات لتقضي امراً فرأته وسألته عمن يقصد . فاجابها بتلجلج انه يريد أسما قالت ما اسمك فابلغها اياه ؟ فابتسم وقال اسمي متري . وظل واقفاً منتظراً واذا بباب فتح بغتة ورآه وأسما خارجة منه بسرعة حتى اذا رأته قبضت على يده بوداد مبتسمة وقبلته فقبلها ـ وادخلته الى غرفة جميلة مفروشة بأجمل الاثاث وأثمن الرياش واجلسته وجلست بجانبه فبقي متري ساكتاً يفكر فخطر له ان اسما تزوجت وانه الآن في بيت زوجهـا ولم يجد تعليلاً اقرب لهذا الغنى الذي لم يكن ينتظره فاصفر وجهه اذ تيقن ان اسما ذهبت من يده الى الابد

والقى نظره عليها فوجدها تبكي فسألها بحزن لماذا تبكين يا اسما وانت في وسط هذه السعادة أينقصك شيء ؟ قالت كلا ولكنني اخاف ان تكون هذه السعادة

سبباً لتنغيصك فجزع متري وعلم ان فكره في محله

فقال وهو يجوش للبكاء ويمسك نفسه ان خالي لم يرضَ ان يذكر لي شيئاً مما جصل وترك ذلك اليك واراك انتِ ايضاً تلمحين الى امر يمنعك اشفاقك عليَّ من اباحته ولكنني بحمد الله رجل قوي ويمكني ان احتمل كل انواع الهموم فقولي يا أسما هل تزوجتِ ؟ قال هذا واصغى بكل سمعه ليسمع الجواب الذي تتوقف عليه اما سعادة عظمى او شقاء الى الابد فقالت اسما نعم . ولا . فقال متري بنفس مرة اما نعم فعرفتها وما هي لا ؟ قالت اسمع فاقص عليك الحكاية من اولها وبعد ذلك احكم كما تشاء ـ انك تظنني ابنة خالك والحقيقة انك واهم . وأخذت تسرد عليه القصة بتمامها كما سمعتها من القس في ليلة الحادثة ـ وختمت حديثها قائلة واني الآن لك كما انت لي وقد حفظني الله طاهرة لكي لاينغصك فهل تقبلني يا متري والحالة هذه قرينة لك ؟

فكان جوابه ان امسك يدها فقبلها . . . .

وبعد ذلك باسبوعين جاء القس الشيخ وعقد قرانها على متري ابن اخته وكانت عذرائنا اسما الارملة تلبس نفس الثوب الذي لبسته في قرانها الاول ولم يحضر هذا القران سوى القس مربيها وجورج خالها وكان الجميع في منتهى الجذل والسرور

وبعد ان انتهى صلاة الاكليل ادخلت العروس الى غرفتها ودخل اليها متري فتلقته مسرورة فنظر اليها نظرة لطيفة وابتسم وكأنه ذكر حينذاك انه زوجها الثاني فابتسمت هي ايضاً وقدمت له خدها فقبلها قبلة حارة

اما القس الشيخ فوافته المنية بعد قليل وقد مات سعيداً جداً بين ذراعي اسما ومتري اللذان شيعاه الى مسكنه الاخير بدموع كثيرة ودفنه ايوب بتلطف وابتسام لانه كان صديقه

وبارك الله محبتهما وهما الآن يعيشان سعيدين لا يوجد بين الازواج من هما اسعد منهما وبالامس علمت ان أسما حاملاً وهكذا (ذكر الصديق يدوم الى الابد)

مشرقي قريصه بصدفا